آراء علماء العقيدة

حول مفهوم « القرآن كلام الله قديم أم حادث

د. مبارك حسن حسين آل عثمين

الأستاذ المساعد

بقسم العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين

الكلام على أن القرآن كلام الله ، والفرق التي قالت برأيها في هذه المسألة ينحصر فيما يأتي :

أهم الفرق التي تدخلت وناقشت هذه المسألة هي :

(أ) السلف .

(ب) الأشاعرة .

(جـ) المعتزلة .

سنتكلم عن كل فرقة وآرائها وأدلتها وبين الرأي الموافق للنقل والشرع في حينه تامة دون التأثر برأي دون رأي قاصدين الوصول إلى الحقيقة المنشودة فنقول وبالله نستعين :

القرآن في الأصل : مصدر « قارأ » يذكر ويراد به القراءة قال — تعالى — « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » أي قراءة الفجر ..

وقال — ﷺ — « زينوا القرآن بأصواتكم » (١) أي زينوا القراءة بأصواتكم .

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي .

وتارة يذكر ويراد به المقروء ، قال الله — تعالى — « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » أى المقروء ، وهو القرآن الذى هو كلام الله — تعالى — وكقول الرسول ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » (١) .

والكلام صفة من صفات الله — تعالى — وهو إما أن يراد به اللفظ المقروء والمحفوظ .

وإما أن يراد به : المعنى النفسى الدال عليه بالألفاظ المتلوة والمقروءة وهو قائم بالذات العلية ، ولفظ القرآن فى الجملة يفيد معنى الجمع قال — تعالى — : « إن علينا جمعه وقرآنه » هذا ويقع الاختلاف بين الفرق فى قضية « هل القرآن كلام الله مخلوق حادث أم قديم » ؟ .

فالسلف : قالوا : إن كلام الله صفة له قائمة بذاته وهو يتكلم بصوت يسمع .

وهذا نوع الكلام قديم ، أما كتابتنا وقراءتنا له فمخلوقة .

فبناء على رأى السلف يكون المتكلم : هو عبارة عن صدر منه الكلام مباشرة ، أو هو المتكلم به أو من فعل الكلام ، أو هو : عبارة عن أحدث الكلام .

فيكون المعنى : أن الله المتكلم بمعنى : فعل الكلام وحصل منه وصدر ، فالكلام صفة ثابتة له . والدليل على أن هذه الصفة ثابتة له ما جاء فى قوله — تعالى — « وكلم الله موسى تكليما » أى أكد الفعل (كلم) بالمصدر وهو تكليما ، لرفع المجاز من أن يكون الكلام صدر من الله بواسطة غيره . ولهذا قال صاحب الطحاوية — ردا على من زعم أن المسموع

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ ورواه البخارى ومسلم .

المنزل والمقروء والمكتوب ليس كلام الله — « كلام الله منه بدأ وإليه يعود » (١)

الأدلة النقلية :

أستدل السلف على أن الله موصوف بالكلام من النقل ، قال الله — تعالى « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه »(٢)

وقال — تعالى — « إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي »(٣)

وقال — تعالى — « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله » (٤)

وقال — تعالى — يريدون أن يبدلوا كلام الله » (٥)

وجاء في الحديث الشريف « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان »

وكما استدلوا بالنقل فقد استدلوا على مدعاهم بالعقل وهي مايلي :

الأدلة العقلية :

يقال : إن الكلام صفة كمال — وضده البكم وهو صفة نقص — والله كامل بذاته إذن يجب أن تثبت له صفة الكلام .

كما يقال : إذا ثبت هذه الصفة للمخلوق الحادث فالخالق أولى بأن تثبت له هذه الصفة — لأنه إذا أعطى الكمال لغيره فأولى أن يوصف به معطى هذا الكمال .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١٣٧
(٢) الآية ١٤٣ الأعراف
(٣) الآية ٤٤ الأعراف
(٤) الآية ٧٥ البقرة
(٥) الآية : ١٥ الفتح .

والدليل على أن الكلام من صفات الكمال ؛ أن الله — تعالى — وبخ وبكت عباد العجل وأبان قلة أفهامهم ، كما بين بطلان ألوهية العجل من حيث إنه لا يتكلم ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فقال الله — تعالى — « ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا » وفى آية أخرى « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعـــا » وقال الله فى وصف المنافقين « صم بكم عمى فهم لا يرجعون »

هذا هو رأى السلف فى مفهوم صفـه الكلام ، ومفهوم المتكلم ، والأدله على رأيهم من النقل والعقل . اهـ

رأى المعتزله

يرى المعتزله أن القرآن كلام الله المكون من الحروف والأصوات والألفاظ المتلوه فهو حادث ، وغـير قائم بذاته تعالى ، لاستحاله قيام الحوادث بذاته تعالى . ويبنوا معنى « متكلما فقالو : « المتكلم هو الخالق الكلام فى غيره » .

أى خالق الكلام فى محل ، فيكون محتاجا إلى المحل ، والمحل حادث ، فيكون كلامه — تعالى — حادثا .

هذا هو رأى المعتزله فى صفة الكلام يتضح منه أنهم ينكرون هذه الصفة ويؤولون كل ما ورد من الآيات الدالة على اتصافه — تعالى — بالكلام تأويلات يخرجها عن مدلولاتها الحقيقيه إلى مدلولات مجازيه ، ليس بينها وبين المدلول الحقيق أية علاقه فقالوا فى قوله « وكلم الله موسى تكليما » .

بأن الله خلق الكلام فى الشجرة ، ثم سمعه موسى — عليه السلام من تلك الشجرة .(١)

(١) شرح مطالع الأنظار ص ١٨٣

فإنما إلى تأثرهم بكلام الفلاسفة فى الصفات ، وإنكارهم لها أصلا ، فإنهم ينكرونها ويعطلون الذات الإلهية منها ، فهم معطلة الذات ، نفاة الصفات . ثم يزعمون بأن صفة الكلام ترجع إلى صفة العلم ، وترجع إلى الخواطر النفسية .

أدلتهم :

١ — قالوا : فى قول الله — تعالى — « إنا جعلناه قرآنا عربيا » فالمجعول هو المخلوق لأن الجعل : هو الخلق — والمخلوق حادث ، إذن القرآن حادث (١)

الرد على هذا الدليل : نقول لهم : إن « جعل » إذا كانت بمعنى : « خلق » تتعدى إلى مفعول واحد ، كما جاء فى — قوله — تعالى — « وجعل الظلمات والنور » : أى خلق وكما جاء أيضا فى قوله — تعالى — « وجعلنا السماء سقفا محفوظا » أى خلقنا وإذا جاءت « جعل » متعدية إلى مفعولين ، فإنها لم تكن بمعنى : خلق بل تأتى بمعنى : صير ، كما جاء فى قوله — تعالى — « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » وفى مثل قوله « إنا جعلناه قرآنا عربيا » بمعنى : صيرناه قرآنا عربيا (٢) كما تأتى « جعل » بمعنى : أنزل ، فى قوله — تعالى — « ولكن جعلناه نورا » أى أنزلنا نورا (٣)

٢ — قالوا فى أدلتهم التى استدلوا بها على مدعاهم ماجاء فى قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

وجه نظرهم : « إذ » ظرف لما مضى من الزمان ، فيكون قوله الواقع فى هذا الظرف مختصا بزمان معين والمختص بزمان محدث لأن الزمان حادث ، فما وقع فيه فيكون حادثا مثله .

---

(١) حاشية الدر الفريد صـ٣٤ والعقيدة الطحاوية صـ١٢٨ وانظر التنبيه والرد صـ ٣٠ للملطى .

(٢) العقيدة الطحاوية صـ ١٢٧ (٣) التنبيه والرد صـ ١٣١ للملطى

الرد على هذا الدليل :

نقول لهم : إن كلامه — تعالى — لا يختص بزمان ، ولا يحويه المكان. فكلامه لا يقال عنه : إنه مختص بالزمان الماضي أو الحاضر أو المستقبل. فهو — تعالى — متكلم مطلقا.

٣ — قالوا : « الله خالق كل شيء » :

وجه نظرهم : إن القرآن شيء فيكون داخلا في عموم « كل » فيكون مخلوقا .

الرد عليهم :

نقول لهم إذا سلمنا لكم جدلا أن القرآن داخل في عموم « كل » فلماذا لا تعترفون بأن أفعال العباد ، داخلة في عموم « كل » فتكون ضمن خلق الله — تعالى . ؟

ولكن منطوق كلامكم أنكم أخرجتم أفعال العباد من هذا العموم الذي تفيده لفظة « كل » وقلتم أنها مخلوقة بقدرتهم.

ونحن أيضا — مادمتم خرمتم القاعدة — فنحن أيضا نحرم القاعدة ونقول. الله خالق كل شيء موجود ماعدا ذاته — تعالى وصفاته فإنهما قديمان أزليان. ثابتان له أزلا وأبدا.

فعموم « كل » في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن ، كما جاء في قوله — تعالى — « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، ومساكنهم شيء » . ولم تدخل في لفظ العموم « لكل ».

فيكون المعنى « تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وما يستحق التدمير إذن بناء على هذا المفهوم للفظ « كل » نقول إن المراد من قوله تعالى.

«خالق كل شيء» أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله. تعالى فهو مخلوق فدخل في هذا العموم: أفعال العباد، ولم يدخل في العموم الخالق، تعالى. وصفاته لأنها لازمة لذاته، تعالى أزلا وأبدا(١).

إذن، إذا كان «الله خالق كل شيء» مخلوقا لا يصح أن يكون دليلا للمعتزلة.

٤ — ومما استدلوا به على أن القرآن حادث «قول الله تعالى» وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فأخطوا بظاهر الآية: نقول لهم: إنه كان محدثا أثناء نزوله على النبي ﷺ.

هذا وما أبطل استدلالهم بقول الله تعالى: «ونودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة»؟

على أن الكلام خلقه الله تعالى: في الشجرة، فسمعه موسى منها.

هذا كلام باطل لأنهم أخذوا جزءا من الآية وتركوا ما قبلها وما بعدها وأصل الآية كما جاء في القرآن المجيد «فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن فالنداء: هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام: النداء من حافة الوادي ثم قال: «في البقعة المباركة من الشجرة» أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول: سمعت كلام خالد من البيت، يمكن من البيت لابتداء الغاية. وليس البيت هو المتكلم كما يدعي المعتزلة.

ولو كان الكلام مخلوقا في الشجرة لكانت الشجرة هي المتكلمة وهي القائلة: «يا موسى إني أنا الله رب العالمين».

وهذا كلام باطل لأنه لم يقل به أحد ممن عنده مسكة من العقل.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٧

ولو كان هذا الكلام صادرا من غير رب العالمين لكان قول فرعون «أنا ربكم الأعلى» صدقا، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق، قد قاله غير الله.

ومع ذلك تمادوا فى أباطيلهم وفرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة فقالوا: هذا كلام خلقه الله فى الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون إلى غير ذلك وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله لقولهم «إن العبد يخلق أفعاله بقدرته استقلالا».

والخلاصة: أن مفهوم المتكلم، هو من خلق الكلام فى غيره، يلزم على هذا المفهوم أن ما أحدثه الله فى الجمادات — كالشجر — وما خلقه فى الحيوانات فهو كلامه.

بل يكون متكلما بكل كلام خلقه فى غيره زورا كان أو كذبا — فيتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

كما يلزمهم أن يوصف الله بالصفات التى خلقها فى غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر وهذا يدعى البطلان.

٢ — رأى الأشاعرة

إذا أردنا أن نقف على رأى الأشاعرة فى هذه المشكلة، فلا بد لنا أن نتعرض لرأى شيخهم أبى الحسن الأشعرى مؤسس هذه الطائفة.

فهل يرى الشيخ أبو الحسن الأشعرى: «أن القرآن المكون من الألفاظ الدالة على معانى لها قديم بلفظه ومعناه أو قديم بلفظه دون معناه أو أن معناه قديم وألفاظه حادثة؟

والحق بعد التحرى والوقوف على رأيه فى كتابيه: الإبانة واللمع — وهما أشهر كتبه الذى دون فيهما آراءه العقدية.

نجد أنه يلزم الصمت فى الإجابة عن هذه المشكلة ، بينما ينسب اليه الشهرستانى القول بحدوث الألفاظ وقدم المعنى النفسى .

أما متأخرو الأشاعرة فيرون أن كلام الله — تعالى — يطلق بالاشتراك على شيئين :

الأول : يطلق على الصفة القائمة بذاته — تعالى — وهى المعنى الذى دل عليه اللفظ المكون من الحروف والأصوات . ويسمونه بالكلام النفسى وهو قديم عندهم .

الثانى : يطلق على الألفاظ المكونة من الحروف والأصوات المنزلة على سيدنا محمد ﷺ فيسمونه بالكلام اللفظى ، ويقولون عنه إنه مخلوق وحادث ، ولكن لا يقال إلا فى مقام التعليم .

ولكن مخالفوهم : ردوا عليهم بأن القرآن كلام الله — تعالى قديم بلفظه ومعناه لأنه ثبت أن الله كلم موسى — عليه السلام وناداه من جانب الطور ، والنداء يكون بالكلام المكون من الحروف والأصوات والألفاظ وكلها كلام الله كما قال — تعالى — «وكلم الله موسى تكليما» .

إذن لا فرق فى كلامه — تعالى — بين الألفاظ والمعانى الدالة عليها ، فكلها كلام الله يجب الإيمان بها على أنها قديمة وليست مخلوقة .

أما كيفية كلامه — تعالى — كيف تكلم فهذا يسند علم حقيقته إلى الله وحده .

أما أدلة الأشعرى على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، فقد صور فى كتابيه : الإبانة واللمع دليلا عقليا استمد مادته العلمية من القرآن المجيد(١) .

---

(١) الإبانة ص ٥٢ — ٥٣ للأشعرى وانظر : اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٣٣ للأشعرى .

فقال : « ومما يدل من كتاب الله — عز وجل — على أن كلامه — تعالى — غير مخلوق — قوله تعالى — : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقوله له كن فيكون » .

فقال الشيخ : « فلو كان القرآن مخلوقا لوجب أن يكون مقولا له : « كن » فيكون ولو كان الله — عز وجل — قائلا للقول « كن » لكان للقول قول آخر وهذا يوجب أحد أمرين :

الأول : إما أن يؤول الأمر إلى أن قول الله غير مخلوق — وهو المطلوب .

الثاني : أو يكون كل قول واقعا بقول آخر وهكذا تتسلسل الأقوال إلى ما لا نهاية والتسلسل باطل لأنه يؤدي إلى سلسلة من الحوادث إلى ما لا أول ولا نهاية له ، وما دام التسلسل باطلا فيبطل ما يؤدي إليه — وهو أن القرآن مخلوق — ويثبت نقيضه — وهو أنه غير مخلوق ، وهذا هو المطلوب .

وقد رد مخالفوهم بأن كلام الله جميعه من معان وألفاظ وحروف وأصوات قديم ، وإنما الحادث فهو كلامنا الذي نتلفظ به من قراءة وكتابة ونطق فقراءتنا للقرآن وتلاوتنا لآياته هي الحادثة .

وردوا قولهم هذا بأن القرآن كلام الله يطلق على المعنى النفسي ، ويسمونه بالكلام النفسي ويستدلون بقول الشاعر (الأخطل) :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فقالوا : إذ لو كان الكلام بمفهومه : المعنى النفسي للزم أن الأخرس يسمى متكلما لقيام الكلام بقلبه ، وإن لم ينطق به ويسمع منه .

هذا وقد ورد فى الصحيحين : أن الله تجاوز عن أمته عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به .

فلو كان ما فى النفس من خواطر يسمى كلاما لم يتجاوز الله عنه ولكان يؤاخذ الأمة عليه ، ولما قال النبى (ﷺ) : « تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما حدثت به نفسها » وقولهم فى تعريف الكلام « إن الكلام صفة أزلية ، قائمة بذاته ، ولا تتعلق بمشيئته وقدرته » يلزم عليه أن يكون الله يتكلم بغير إختياره وإرادته .

وهذا يلزم عليه أن يكون الله مقهورا ومجبورا على أن يتكلم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقولهم : « إن الكلام معنى واحد هو الأمر والنهى والخبر والاستخبار » إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة .

الجواب : إن من المعلوم بالضرورة بالعقل والدين أن التوراة إذا أعربناها لم يكن معناها : معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه إلى العبرانية لم يكن توراة . وأيضا فى القرآن نفسه مفهوم الآيات يختلف من آية إلى آية فمثلا : معنى آية الكرسى غير معنى « قل يا أيها الكافرون » .

وقولهم : « أن كلامه ليس بحروف ولا أصوات ... » لأنه يترتب على أنه لو كان حروفا وأصواتا ما يأتى :

أولا : إن الحروف والأصوات لا بد لها من أدوات ومخارج .

ثانيا : إن الصوت يستحيل بقاؤه ، كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه .

ثالثا : يلزم من الصوت والحروف التعاقب أى : أن يأتى حرف بعد

حرف ، والقديم لا يكون مسبوقا بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى القائم بالذات العلية .

وقد رد على الأشاعرة فى هذه الشبهة بما يأتى :

أولا : أن ما زعموه من الحروف والأصوات وتعاقبها إنما تكون فى المخلوق الذى يتكلم بفم ولسان أما الخالق — جل وعلا — فكلامه وإن اشتمل على الحروف والألفاظ لا يقال أنها متعاقبة وما أسبقية لبعضها على بعض لأن الله ليس كمثله شىء ، ولأنه قال « هل تعلم له سميا » أى مثيلا أو شبيها .

ثانيا : إن الله قال فى وصف الكفار واليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» .

فهل للأيدى والأرجل التى ستتكلم يوم القيامة ، وتشهد على الإنسان بما عمل ، لها فم ولسان ومخرج تخرج منه الكلمات أم أنها تنطق بقدرة الله من غير أن يكون لها ذلك ؟

طبعا أن الله قادر على أن يجعلها تنطق وتتكلم بدون فم ولسان لأن قدرته لا تعزب عن شىء من مخلوقاته . قال — تعالى « وهو على كل شىء قدير » .

ثالثا : لقد ثبت أن الذراع الذى سمته اليهودية وقدمته للنبى ﷺ ونطق الذراع أنه مسموم فهل كان لها لسان وفم ؟

الجواب : كلا : لأنها نطقت بقدرة الله — تعالى — .

رابعا : إن القول بأن الصوت يستحيل بقاؤه كلام غير مسلم لهم لأنه عارى من الأدلة النقلية والعقلية .

وكل دعوى تقام بلا دليل يمكن للخصم أن يقول بعدمها .

هذا وقد ثبت أن الأصوات باقية فى الجو ، وتحاول الدول جمعها وأكبر برهان على هذا : أن أجهزة التصنت تعمل ليل نهار فتصنت على الناس ونقلها ما يجرى فى الدول ولو كانت بعيدة على مسافات الأميال .

وهاهو المذياع يذيع فى أمريكا أو فى منطقة الشرق ويسمعه العالم فى أرجاء المعمورة فلو كان الكلام بمجرد خروجه من الفم يفنى ويتلاشى لما أمكن سماعه فى مكان آخر من الأمكنة النائية بمئات الألوف من الأميال .

والخلاصة : أن الله تكلم بكلام المشتمل على الحروف والأصوات لثبوت ذلك بالكتاب الكريم من أن الله كلم موسى وناداه ، وإن موسى سمع كلا الله منه مباشرة بلا واسطة شجر ولا حجر ولا من غيرهما .

ونحن إذا وازنا بين آراء السلف والمعتزلة والأشاعرة نجد أن السلف قالوا بقدم كلامه — تعالى — المشتمل على الحروف والأصوات كما نجد أن رأى المعتزلة كان على الضد من كلام السلف وقالوا بحدوث كلامه — تعالى — المشتمل على الحروف والأصوات لكونهم ينكرون صفة الكلام القديم لله — تعالى — بزعم الفرار من تعدد القدماء .

أما الأشاعرة فقد جعلوا بعض الكلام قديما وهو ما أطلقوا عليه الكلام النفسى وبعضه حادث وهو الكلام اللفظى ، وهذا لا يرضى ما أطلقوا على أنفسهم سلفيين وقالوا إن الخطأ الذى وقعوا فيه هو قياسهم كلام الخالق على كلام المخلوق ، هذا ما أردنا بيانه وتوضيحه والله الهادى إلى الصواب ا . هـ .